التعجب

بين كتاب سيبويه(ت١٨٠هـ)والمقتضب للمبرد(ت٢٨٥هـ)

[دراسة موازنة في منهج التدوين النحوي]

بحث أعدَّه :

د. حسن عبد الغني الأسدي

جامعة كربلاء – كلية التربية

قسم اللغة العربيَّة

بسم الله الرّحمن الرّحيم

مستخلص البحث (التعجب بين كتاب سيبويه(ت١٨٠هـ)والمقتضب للمبرد(ت٢٨٥هـ)

يمثل المنهج التدويني (أعني : خطة الكتاب) جانباً مهماً من منهج التحليل النحوي ولاسيما في كتاب سيبويه الذي يمثل وحده مرحلة متفرّدة من مراحل الدرس النحوي للغة العربية، هي مرحلة يتبوأ بها الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ) وتلميذه الحاذق سيبويه(١٨٠هـ) مبوَّءً سامقاً لا يدانيهما أحد من النحاة فيه. ولاغرو في هذا القول فهذه كلمات علماء النحو العربي ومؤرّخيه يقرون بالفضل لهما والتقدمة ما لا مزيد لغيرهما عليهما ويقرون أن الكتاب بلغ منزلة لم يبلغها كتاب غيره.

لقد نظر سيبويه إلى أنّ عمل الفعل، الذي هو العامل الفعّال الأقوى في الجملة قائم على التعدي إلى المفعولات لا التعدي إلى الفاعل، فابتدأ به أولاً في كتابه ثم أكمل مسيرته على وفق الحالات الإعرابية (نصب وجر ورفع) التي كان ترتيبها على هذا التتابع انعكاسا لمنهجه في تدوين المادة النحوية، وقد كرر سيبويه هذه الحالات بترتيبها هذا في القسمين الرئيسين من كتابه ، الأول في الأسماء، والثاني في الأفعال.

لقد ذكر سيبويه التعجب في موضعين متباعدين، جاء الموضع الأول في إطار ذكره المنصوب من الأسماء والعامل فيها الفعل وهو القسم الأول من الكتاب ، وجاء الموضع الثاني الذي ذكر فيه الأبواب التي يكتمل بها (التعجب) في أواخر الكتاب وتحديداً في مواضع تتوجه نحو المفردات بنية ومعنى ، فذكر فيها ما يجوز صياغة التعجب منه من المعاني وما لا يجوز في ذلك .

إن المتأمل في هذا التقسيم يجد أنه خضع لرؤية منهجية منضبطة، وهو أمر غاب في عن المبرّد في كتاب المقتضب فسرد الأبواب الخاصة بالتعجب في موضع واحد كما سيأتي، و يمثل هذا الاختلاف وجهة أخرى أو منهجية تدوينيّة أخرى تظهر بعد سيبويه في تلك الحقبة. ويبدو أن الأمر انتقل إلى منحى تدوينيّ هو أوضح في الحقبة التي تلت سيبويه، وذلك عند ابن السراج البغداديّ(ت٣١٦هـ) في كتابه الأصول في النحو، الذي كان هدفه المنشود إعادة صياغة كتاب سيبويه او مسائله بعد أن أضحى سيبويه مجهول المنهج .

####################################

....

التعجب

بين كتاب سيبويه(ت١٨٠هـ)والمقتضب للمبرد(ت٢٨٥هـ)

[دراسة موازنة في منهج التدوين النحوي]

د. حسن عبد الغني الأسدي
جامعة كربلاء – كلية التربية
قسم اللغة العربيَّة

المدخل:

تكمن قيمة كتاب سيبويه (ت١٨٠هـ)– من وجهة نظرنا – في الدقة المنهجية التي أخرج سيبويه كتابه بها، ولا يغيب عنا هاهنا أثر أستاذه الخليل (ت١٧٥هـ) في هذه المنهجية، وكان سيبويه على مستوى عال من الإدراك لكل ما أتحفه به الخليل من آراء وتعليلات، وأسس يقوم عليها فهم كلام العرب.ولقد كان سيبويه مبدعاً مثل معلمه؛ فهو صاحب عقليَّة نحويَّة قلَّ نظيرها. وعلى الرغم ممّا تبيَّن لنا من تجاهل النحويين الخالفين، وعدم إدراكهم لكثير من تصوراته، ولا سيما منهجه في تدوين المادة النحوية الذي مثَّل صورة لمنهجه في التحليل النحوي إلاّ أن ذلك لم يحل دون أن يرتقي كتابه المكانة التي عزَّ على كتاب غيره ارتقاؤها؛ حتى اشتهر أنّ جميع النحويين عيال على سيبويه.وقد بدا سبب ذلك بحسب أحد الباحثين المعاصرين أنّ : **((أعظم ما يصنع عالم لموضوعه ،إذ آتاه حقه من التقصي والاستيعاب، ومن الدرس والنقد، وجَهِد ما أسعفه الجهد الكبير، والعقل المستنير لتحرير المسائل، وترتيب الموضوعات حتى استحق كتابه في النحو والصرف أن يكون الكتاب؛ واستحق هو به أن يكون في النحويين الإمام))**[1].ولم يكن الكتاب مقتصرا على النحو والصرف كما يحلو لجمهور الدارسين أن يقولوا؛ والظاهر عندنا انّ هذا جزءً من عدم فهمهم الكتاب على النحو الذي أراده صاحبه. ولا تقف فضيلة الكتاب على الريادة في دراسة الكلام نحويا وصرفيا؛ بل تتجاوز إلى أن الكتاب اشتمل على التأسيس لكثير من علوم البيان، ففيه التوسع في الكلام والمجازات التي يضمها علما البلاغة والدلالة؛ وأفاد في الفتيا الشرعية لما احتواه الكتاب من منهج للنظر والاستدلال، قال أبو بكر بن شقير: **((حدثني أبو جعفر الطبري قال: سمعت الجرمي يقول: أنا مذ ثلاثون أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه. قال: فحدثت به محمد بن يزيد على وجه التعجب والإنكار؛ فقال:أنا سمعت الجرميّ يقول هذا - وأومأ بيديه إلى أذنيه. وذلك أن أبا بكر عمر الجرمي كان صاحب حديث، فلما علم كتاب سيبويه تفقّه في [2]الحديث؛ إذ كان كتاب سيبويه يتعلّم منه النظر والتفتيش))**[2] ومما اشتمل عليه الكتاب أيضا علم الأصوات العربية الذي تطور على نحو جعله علما مستقلا وذلك في ظل علم التجويد كما يأتي في هذا السياق ما قال الدكتور المخزومي:**((ويخيل إليّ أن**

---

[1] - سيبويه إمام النحاة : ١٨٦

[2] - الكتاب : ١/١ (مقدمة الكتاب).

النحويين على اختلاف طبقاتهم ومدارسهم إنّما استمدّوا النحو من البصرة، ومن علم الخليل المتمثّل في كتاب سيبويه خاصة، ولا فرق في ذلك بين كوفيّ وبصري وبغداديّ)) [٣].

إنّ من الإجحاف أن ينظر إلى كتاب سيبويه كما ينظر إلى المؤلفات البارزة التي تلته في النحو العربي التي كان جلّ همها أن تضع القواعد للكلام الصحيح الذي هو كلام العرب الفصحاء على حين كان جل همّ سيبويه أن ينظر لكيفية فهم هذا الكلام وبيان أوجهه ومجالات تحليله، وأثر الألفاظ في بناء الجملة وامتدادها، مع بيان الأوجه التي يحكم بها على الكلام بالصحة النحوية، والصحة الدلالية من عدمهما. ويظهر أنّ معرفة وجه الخطأ في الجملة هو أحرى عند سيبويه بأن ينبّه عليه لا أن يكون جلّ الاهتمام منصبا على معرفة الإعراب. واستسهل سيبويه معرفة الإعراب إلى جنب الهمّ الأكبر، الذي هو معرفة الخطأ، وبيان وجهه في الكلام وقباحته؛ فقال في تعليقه حول الجملة:(مررت بقائماً رجلٍ) فقال:" **((فإن قال: أقول مررت بقائماً رجل، فهذا أخبث، من قبل أنه لا يُفصل بين الجار والمجرور، ومن ثم أُسقط رُبّ قائماً رجلٍ. فهذا كلام قبيح ضعيف؛ فاعرفْ قبحه، فإنّ إعرابه يسير. ولو استحسنّاه لقلنا هو بمنزلة فيها قائماً رجل، ولكن معرفة قبحه أمثل من إعرابه))**[٤]. وذلك مما نفتقده عند النحاة الخالفين، وإن وجد فلسيبويه فضيلة السبق؛ وفي الأغلب هو نقل لكلامه من غير أن يكون ذلك عند الناقل مؤسسا على نظرة منهجية، كتلك التي جاء بها سيبويه.ويبدو لي أنّ الهم الذي عاشه سيبويه في فهمه لكلام العرب يستند على أنّه نظر إلى كلام العرب بوصفه لغة خطاب لها أثرها في التواصل بين أفراد المجتمع لا بوصفها لغة انحسر استعمالها في حدود معينة. وهي مزيّة امتاز بها أسلوب الكتاب في تناوله للكلام، ولوحدته التركيبية [الجملة]؛ في حين أن هذه المزيّة لم تظهر عند بقية النحاة؛ فكان البحث النحوي عندهم مؤطّرا بإطار قواعدي أي: وضع القواعد التعليمية لصياغة الكلام صياغة صحيحة، ومن ثمّ كان الأمر المهم الذي فارق نحو سيبويه عن نحو غيره هو تحوّل النحو من فهم الكلام إلى وضع القواعد لتعلّم الصحيح من الكلام .

وفي الحق لا يسعى البحث إلى كيل المدح لهذه الشخصية ولكتابها كيلاً، فقد كثر ذلك قديما وحديثاً؛ ولكن البحث يسعى إلى بيان أنَّ النظريَّة النحوية في الكتاب تختلف كثيراً عن نظرية النحويين التي تمثلت بدايتها المنهجية في عمل ابن السراج(ت٣١٦هـ) في كتابه (الأصول في النحو) الذي مهَّد فيما بعد لتأكيد تأثير التفكير المنطقي على الدرس النحوي العربي ثم الوصول إلى مرحلة وصفها المحدثون، وقبلهم طائفة من القدامى بالتعقيد، والبعد عن الحس اللغوي. ونرى أنّ التعقيد والبعد عن الحس اللغوي لم يكمن في مسألة التأثر بالمنطق أو بغيره بل يكمن في مسألة أهمل النحويون الإشارة إليها سواء في ذلك القدامى و المحدثون، وتلك المسألة: هي عدم تعاملهم مع اللغة العربية بوصفها لغة خطاب متداولة عند الناس، وهي مزيّة تحسب لسيبويه، فعلى حين(**تعامل سيبويه مع اللغة العربية بوصفها لغة الخطاب القائمة بين أفراد المجتمع ...**)[٥]؛ نرى النحويين الخالفين قد أهملوا هذه الناحية إهمالاً سوى بعض اللمحات هنا

٣- مدرسة الكوفة:٨٩ .

٤- الكتاب سيبويه: ١/ ١١٦.

٥- ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه : ٢٨٤ .

وهناك، ومن هنا يجب أن نفهم أصول التفكير النحوي عند سيبويه من نحو نظرية العامل النحوي إذ إنَّ ((**المتأمل في تعليقات سيبويه بصدد ذلك يجد أن العامل عنده ذو طبيعة لغوية محض، إذ كان عمله عنده في الأغلب قائماً على ما يصطلح عليه بـ[التعدي]**))[٦]، علماً أن مفهوم التعدي عنده يعد مفهوماً تكوينياً **((أي يقوم الفعل بتكوين الجملة فيستدعي الفاعل ويستدعي المفعول ويستدعي بقية المكونات مما يقتضيه المحل ويريده المتكلم**))[٧] ، وذلك ما سنلمسه قريباً في عنوان أول أبواب التعجب في الكتاب، بخاصة في بيان فعلية (ما أفعله).

وبعد؛ فلقد رأينا في إنشاء هذا البحث تناول موضوع التعجب بوصفه موضوعاً نحويّاً في إطار منهج تدويني لكتاب سيبويه تم الكشف عنه في دراسة سابقة[٨]، وموازنته في هذا الإطار مع أقرب المؤلفات إليه في الزمن الذي هو كتاب (المقتضب) للمبرد(ت٢٨٥هـ) سعياً لإبراز مواطن المفارقة المنهجية أو اتفاقها، وتأكيداً للمنهج التدويني الذي أنشأه سيبويه لكتابه، ولهذا يوسم البحث بكونه دراسة موازنة .

وتجب الإشارة إلى أننا لم نستطع أن نتبيّن منهجية المبرد التدوينية للمقتضب ، إلا أننا لا نعجل فنقول بانعدام تلك المنهجية، وإن دعا إليها ظاهر الحال، إذ إنَّ المتتبع لسرد أبواب المقتضب يجد خلطاً ظاهراً في توجهات الأبواب بين الاهتمام بالتركيب مرة، وبالمفردات مرة أخرى، ولا يستقيم على حال بعينها، على حين أن الإشارات لتأثر المبرد بسيبويه واضحة جداً كما يقول الشيخ عضيمة محقق المقتضب: **((وقد تغلغل تأثير سيبويه في أعماق المقتضب))**[٩].

التوطئة المنهجية:

إن البنية الأساسية التي يقوم عليها هذا البحث تخضع لتصور منهجي في قراءة النصوص يسمى(المدونة المغلقة) أو(غلق المدونة)، إذ ينظر هذا المنهج إلى النص المكتوب بوصفه وحدة دلالية متكاملة، وعلى قارئ النص السعي للكشف عن آلياته التي يقوم عليها من عباراته ومصطلحاته، وما يقتضي ذلك من خلفيات مرجعية لكاتب النص.وهذه هي روحيّة المنهج الفولولوجي(حب الكتابة) الذي يأخذ بعين الاعتبار كلّ ما يرد في المدوّنة [وهي هنا: الكتاب والمقتضب]، وألاّ يتمّ فهم ما فيهما من خارجهما، وينزع مثل هذا المنهج للإفادة من كلّ ما يرد في المدونة ليكون كاشفا عن فكر من وضعها في هذا الموضع أو ارتجلها؛ وبعبارة أخرى أن يكون فهم المدونة كما يتم فهم الرُّقُم الطينية للحضارات البائدة، التي لا وسيلة في فهم ما فيها إلاّ منها ومن بقية أخواتها الرُّقُم التي معها في حضارتها .

---

[٦]- المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيبويه : ٦٠ .

[٧]- مفهوم الجملة عند سيبويه : ١٢٢ .

[٨]- هي الأطروحة لنيل الدكتوراه(مفهوم الجملة عند سيبويه)التي هي دراسة سعت لقراءة الكتاب من بين دفتيه أنجزت في صيف١٩٩٩م، وطبعت بالعنوان نفسه في٢٠٠٦ بدار الكتب العلمية، بيروت.

[٩]- المقتضب : ١ / ٨٨ (مقدمة المحقق) .

على ما تقدّم فإنّ كلاً من ترتيب أبواب المادة النحوية في كتاب سيبويه، وفي المقتضب للمبرد سيكون كاشفاً عن منهجية كلٍّ منهما في فهم كلام العرب من جهة ترتيب المباحث العامة لهذا العلم مع ارتباطها بالكشف عن منهج تناول المادة اللغوية وتحليل الكلام ومستويات فهمه أو الكشف عن أنظمة وسائل تكوين الجمل وامتدادها . من هنا فإنّ ترتيب أبواب التعجب سيكون جزءاً من ذلك، بل إنّ ترتيب أبواب التعجب في كتاب سيبويه ومواضع إيرادها يمثل هذا خير تمثيل كما سيتّضح في طيات البحث، إذ أخضع سيبويه هذا الموضوع لمنهجه في التدوين النحوي ولمنهجه في التحليل النحويّ للجملة العربية.

مثل هذه الدراسة الموازنة بين مدونتين نحويتين لأبرز عالمين من علماء النحو ستكون وسيلة فاعلة لرسم صورة واضحة للمناحي التي اتخذتها الدراسة النحوية عقب ما يزيد على أكثر من قرن من الزمان.سواء في ذلك كيفية تدوين هذا العلم وكيفية تحليل الجملة وبقية مكونات النظام اللغوي للغة العربية .

لقد نظر سيبويه إلى أن عمل الفعل، الذي هو العامل الفعّال الأقوى في الجملة قائم على التعدي إلى المفعولات لا التعدي إلى الفاعل، فابتدأ به أولاً في كتابه ثم أكمل مسيرته على وفق الحالات الإعرابية: (**نصب وجر ورفع**) التي كان ترتيبها على هذا التتابع انعكاسا لمنهجه في تدوين المادة النحوية، وقد كرر سيبويه هذه الحالات بترتيبها هذا في القسمين الرئيسين من كتابه ، الأول في الأسماء ، والثاني في الأفعال. وهنا أنوّه إلى مسألة هي في غاية الأهمية ظهرت لي في دراستي الكتاب في الدكتوراه الموسومة بـ(مفهوم الجملة عند سيبويه). تلك هي النظرة التي تفتقر للدّقة العلميّة المتعلقة بمنهج سيبويه في كتابه التي تذهب إلى القول بأنّ هناك خلطا في بعض الأبواب النحوية، ودليل قائل هذا وجود أبواب الموضوع الواحد مبثوثة في أكثر من موضع، وفات من يقول ذلك الانتباه إلى أنه انطلق من تصوراته هو عن النحو ومنهجه، ولاسيما ما ورثه عن شرّاح ألفية ابن مالك. والحق أن لسيبويه منهجاً دقيقاً غفل عنه الدارسون، إذ لم ينظروا إليه من أوله إلى آخر باب من أبوابه ؛ واكتفوا بأن يأخذوا منه نتفا ومقطعات، تعينهم في رسم صورة لم تكن كاملة، بل مختلطة لمباحث النحو والصرف في الكتاب؛ ولذلك قالوا ما قالوا، كما قالوا قديما كان النحو مجنونا فعقله ابن السرّاج بأصوله ، والحق أن النحو قد كبل بالأغلال التي أفقدته الرونق الذي صاغه له الخليل وبعده سيبويه.

لقد ذكر سيبويه التعجب في موضعين متباعدين، جاء الموضع الأول في إطار ذكره المنصوب من الأسماء والعامل فيها الفعل، وهو القسم الأول من الكتاب، وجاء الموضع الثاني الذي ذكر فيه الأبواب التي يكتمل بها (التعجب) في أواخر الكتاب وتحديداً في مواضع تتوجه نحو المفردات بنية ومعنى ، فذكر فيها ما يجوز صياغة التعجب منه من المعاني وما لا يجوز في ذلك .والمتأمل في هذا التقسيم يجد أنه خضع لرؤية تدوينيّة منضبطة ، وهو الشيء الذي ألغي في كتاب المقتضب الذي سرد الأبواب الخاصة بالتعجب في موضع واحد كما سيأتي، ويمثل_ في نظري _ وجهة أخرى أو منهجية تدوينية أخرى تظهر بعد سيبويه في تلك الحقبة.

المعنى اللغوي للتعجب :

يظهر أنَّ الأساس في المادة اللغوية (عجب) يرجع إلى خلقة قبيحة تكون في مؤخرة الدابّة ، فعن الخليل: ((**العجب من كل دابّة ما ضمت عليه الوركان من أصل الذنب المغروز في مؤخر العجز، تقول : لشد ما عجبت . وذلك إذا دقَّ مؤخرها وأشرفت جاعرتاها ، وهي خلقة قبيحة فيمن كانت. وناقة عجباء بيّنة العجب والعجبة. وعجوب الكثبان أواخرها المستدقة . قال لبيد:**

بعجوب كثبان يميل هيامها)) [١٠].

وقال الفيروزآبادي:((**...وإنكار ما يرد عليك كالعَجب محركة .. تعجبت منه واستعجبت منه كعجبت منه، وعجبته تعجيباً، وما أعجبه برأيي شاذ ..))**[١١].

ووقف عند هذه المادة الراغب الأصفهاني ؛إذ هي من جملة االمواد اللغوية القرآنية، فقال: ((**العَجَب والتعجّب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، ولهذا قال بعض الحكماء: العجب ما لا يعرف سببه، ولهذا قيل: لا يصح على الله التعجب؛ إذ هو علّام الغيوب لا تخفى عليه خافية. يقال: عجبت عجبا، ويقال للشيء الذي يتعجب منه: عجب، ولما لم يعهد مثله عجيب. قال:﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾**(يونس٢)**، تنبيهاً أنهم قد عهدوا مثل ذلك قبله، وقوله:﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ ﴾**(ق٢)**،﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾** (الرعد٥)، **﴿ كَانُوا مِنْ آَيَاتِنَا عَجَبًا﴾**(الكهف٩)**، أي: ليس ذلك في نهاية العجب بل في أمورنا أعظم وأعجب منه.﴿ قُرْآَنًا عَجَبًا ﴾** (الجن١)**، أي: لم يعهد مثله، ولم يعرف سببه))**[١٢] ، ويظهر أنّ الدلالة القرآنية قد خرجت من هذه الدلالة إلى أخرى ظهرت في مواضع أخرى قال الراغب:((**ويستعار مرة للمونق فيقال: أعجبني كذا أي: راقني.قال تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ ﴾**(البقرة٢٠٤)**﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ ﴾**(التوبة٨٥)**،﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾** (التوبة٢٥)**،﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾**(الحديد٢٠)**،قال:﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾**(الصافات١٢)**،أي: عجبت من إنكارهم للبعث لشدة تحققك معرفته،ويسخرون لجهلهم. وقيل:عجبت من إنكارهم الوحي))**[١٣].

وأورد ابن منظور في هذه المادة قوله: ((**والتَّعَجُّبُ أَن تَرَى الشيءَ يُعْجِبُكَ تَظُنُّ أَنك لم تَرَ مِثْلَه وقولهم: للّه زيدٌ، كأَنّه جاءَ به اللّه من أَمْرٍ عَجِيبٍ، وكذلك قولهم للّه دَرّهُ، أَي: جاءَ اللّهُ بدَرِّه من أَمْرٍ عَجِيبٍ لكثرته. وأَمر عُجَابٌ وعُجَّابٌ وعَجَبٌ وعَجِيبٌ وعَجَبٌ عاجِبٌ وعُجَّابٌ على المبالغة يؤكد به...))**[١٤] وذكر ما يربطه بخلقة الناقة فقال:((**وقيل هو أَصلُ الذَّنَبِ كُلُّه وقال اللحياني: هو أَصْلُ الذَّنَبِ وعَظْمُه، وهو العُصْعُصُ، والجمعُ أَعْجابٌ وعُجُوبٌ. وفي الحديث: كُلُّ ابنِ آدمَ يَبْلَى إِلا العَجْبَ. وفي رواية: إِلاَّ عَجْبَ الذَّنَب، العَجْبُ بالسكون:العظم الذي في أَسفل الصُّلْب عند العَجُز، وهو العَسِيبُ من الدَّوابِّ، وناقة**

١٠- العين : ١ / ٢٣٥ – ٢٣٦ .

١١- القاموس المحيط : ١ / ١٠١مادة (العجب) .

١٢- المفردات في غريب القرآن :٣٣٤

١٣- المفردات في غريب القرآن :٣٣٤

١٤- لسان العرب :مادة عجب .

عَجْباءُ بَيِّنَةُ العَجَبِ غليظةُ عَجْبِ الذَّنَب.وقد عَجِبَتْ عَجَباً، ويقال:أَشَدُّ ما عَجُبَتِ الناقةُ إذا دَقَّ أَعْلى مُؤَخَّرِها، وأَشْرَفَتْ جاعِرَتاها، والعَجْباءُ أَيضاً: التي دَقّ أَعلى مُؤَخَّرِها وأَشرَفَتْ جاعِرَتاها، وهي خلْقَةٌ قبيحة فيمن كان))[١٥]. وقال في تاج العروس:((**حَاصِل ما ذَكَرَه أَهْلُ اللُّغَةِ في هَذَا المَعْنَى : أَنَّ التَّعَجُّبَ حَيْرَةٌ تَعْرِض لِلإِنْسَانِ عِنْد سَبَبِ جَهْلِ الشَّيْءِ ولَيْسَ هُوَ سَبَباً لَه في ذَاتِه بَلْ هُوَ حَالَة بحَسَبِ الإِضَافَة إِلَى مَنْ يَعْرِف السَّبَبَ وَمَنْ لا يَعْرِفُه ولِهذَا قَالَ قومٌ : كُلُّ شَيْءٍ عَجَبٌ . وقَال قَوْمٌ : لاَ شَيْءَ عَجَبٌ))**[١٦] .

يظهر مما تقدم أنه جرى التوسع في الدلالة اللغوية الأولى من كون العجب صفة مادية ليشمل ما يثير المشاعر من سخط أو رضا، ويحتمل أن التوسّع أتى من (العُجب) وهو((**بالضم الزهو والكبر))**[١٧] ، لينتقل إلى ما يثير المتكلم ليتعجب منه بالسخط والرضا. ولكن التوسّع من كونها خلقة لمؤخرة الناقة، أو ما استدق من الأواخر هو المسلك الأكثر قربا إلى ما تسلكه الألفاظ في تطوّراتها الدلالية. ولربما اقترنت الصيغتان (العَجب والعُجب) فاقترن معناهما فكونا الضد، فـ((**العجباء التي يتعجب من حسنها ومن قبحها ضد))**[١٨] ،لذا التعجب يتوجّه إلى زيادة في الحسن وإلى زيادة في القبح.

المعنى الاصطلاحي للتعجب :

استقرّت الدلالة الاصطلاحيّة عند النحاة بما عبّر عنها رضي الدين الأستراباذي(ت٦٨٨هـ) بقوله: **((واعلم أن التعجّب: انفعال يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببه، ولهذا قيل:إذا ظهر السبب بطل العجب، ولا يجوز التعجب منه تعالى حقيقة؛ إذ لا يخفى عليه شيء، ففعل التعجب في اصطلاح النحاة، هو ما يكون على صيغة: ما أفعله، أو: أفعل به، دالّا على هذا المعنى، وليس كل فعل أفاد هذا المعنى، يسمى عندهم فعل التعجب))**[١٩]وبينما ذهب سيبويه والبصريون إلى فعلية أفعل وأفعل به في التعجب ذهب أكثر أهل الكوفة إلى اسميتهما؛ قال في ذلك الرضي:((**توهم غير الكسائي من الكوفيين أن أفعل التعجب: اسم كأفعل التفضيل ، وقوى وهمهم تصغيرهم إياه في قوله:**

ياما أميلح غزلانا شدن لنا......... من هؤليائكن الضال والسمر

وأما الكسائي فوافق البصريين في فعليته، ولو لا انفتاح أفعل التعجب وانتصاب المتعجب منه بعده، انتصاب المفعول به، لكان مذهبهم جديرا بأن ينصر، وقد اعتذروا لفتح آخره بكونه متضمنا لمعنى التعجب الذي كان حقيقا بأن يوضع له حرف، كما مر في بناء اسم الإشارة، فبني لتضمنه معنى الحرف، وبني على الفتح لكونه أخف، فما مبتدأ، وأحسن خبره: أي: شئ من الأشياء متعجب من حسنه، و (ما)

---

[١٥]- لسان العرب :مادة عجب .

[١٦]- تاج العروس في جواهر القاموس: مادة عجب .

[١٧]-

[١٨]- القاموس المحيط: مادة (العجب) .

[١٩]- شرح الرضي على الكافية : ٢٢٨/٤.

نكرة غير موصوفة))[20] وقال في كيفية وقوع التعجب: **((وذلك لأن التعجب، كما ذكرنا، إنما يكون فيما يجهل سببه، فالتنكير يناسب معنى التعجب، فكأن معنى ما أحسن زيدا، في الأصل: شئ من الأشياء، لا أعرفه جعل زيدا حسنا، ثم نقل إلى إنشاء التعجب، وانمحى عنه معنى الجعل، فجاز استعماله في التعجب من شيء يستحيل كونه بجعل جاعل، نحو: ما أقدر الله، وما أعلمه، وذلك لأنه اقتصر من اللفظ على ثمرته وهي التعجب من الشيء، سواء كان مجعولا أو له سبب))** [21].

ويعد نص الكتاب أول النصوص النحوية المدونة التي استعمل فيها مصطلح التعجب بوصفها من جملة مصطلحات الدرس النحوي المشهورة ، وكان من جملة مصطلحات الدرس النحوي المتداولة في الحقبة التي سبقت تأليف الكتاب، ولم يحاول سيبويه صياغة حد لهذا المصطلح، وتبعه في ذلك المبرد ، وفعل ابن السراج في كتابه الأصول فعلهما[22] بيد أن الأمر لا يمنع من محاولة الكشف عن مفهوم التعجب عند طرفي الموازنة، وبخاصة أن هذه المحاولة محددة في ضوء مفهوم المدونة المغلقة في قراءة النص على ما سبقت الإشارة إليه .

يرى سيبويه أنَّ التعجب معنى يراد به الارتفاع بالمتعجب منه عن رتبة أدنى فيما يتعجب منه ، ولعل هذا المفهوم يظهر في بعض نصوصه عرضاً ، وذلك بقوله في كون التعجب والتفضيل ينزعان منزعاً واحداً : **((وما لم يكن فيه ما أفعله لم يكن به أفعل به رجلاً ،ولا هو أفعل منه ، لأنك تريد أن ترفعه من غاية دونه ، كما أنك إذا قلت : ما أفعله ، فأنت تريد أن ترفعه عن الغاية الدنيا))**[23] ، وكذلك هو معنى التفضيل عنده في موضع آخر إذ يقول في (ما أقوله وما أبيعه) : **((لأن معناه معنى أفعل منك وأفعل الناس ، لأنك تفضله على من لم يجاوز أن لزمه قائل وبائع ، كما فضلت الأول على غيره من الناس))**[24] . فالتعجب عند سيبويه معنى يراد به الارتفاع برتبة المتعجب منه عن رتبة هي أدنى مما يتعجب منه ، ويتم التعجب بصيغ فعلية وهو ما يشير إلى كون التعجب معنى من المعاني ، وليس هو من الأعيان ، وكذلك الحال في بعض التركيبات التي تفيد التعجب[25] ، إذ نسجت على وفق نمط آخر غير ما أفعله وأفعل به خرجت إلى التعجب ، والملاحظ أن كل تركيبات هذا الباب سواء منها نمطا ما أفعله وأفعل به أم التركيبات الأخرى المقيدة للتعجب يمكن أن نعدها أنماطاً نحوية محولة (تركيبات تحويلية)،

---

[20]- شرح الرضي على الكافية :٢٣٠/٤.

[21]- شرح الرضي على الكافية: ٢٣٠/٤.

[22]- ينظر : الأصول في النحو : ١ / ١١٤ .

[23]- الكتاب ٤ / ٩٧ .

[24]- الكتاب ٤ / ٣٥٠ .

[25]- نصف التعجب بكونه معنى تحويلياً، فضلاً عما سيرد في الكلام حول(ما أفعله) ،وذلك لأن بقية التركيبات التي يظهر فيها التعجب تستعمل في الأصل لمعان أخرى كما هو في تالله ولله التي هي للقسم في الأصل، وأفادت التعجب في بعض السياقات(ينظر:الكتاب:٤٩٧/٣ و ٤٩٨/٣) وكذلك في: يا لك فارساً وهو نمط النداء،وأفاد التعجب(ينظر: الكتاب: ٢٣٧/٢) وفي(لا كالعشية زائراً)لأن الكاف ليس باسم وفيه معنى التعجب..(الكتاب:٢ /١٥٢)، وينظر :١٨١/٢ .

وكلام الخليل واضح في إبراز هذا التحويل، إذ يعمد إلى التفسير البنائي لجملة التعجب بالارتكاز على النمط الافتراضي للجملة العربية وهو:[المسند + المسند إليه] ، ومن ثم يجري إكساء هذا النمط المعنى الدلالي المفيد للتعجب، يقول سيبويه في(ما أحسن عبد الله):((**زعم الخليل أنه بمنزلة قولك : شيء أحسن عبد الله ، ودخله معنى التعجب، وهذا تمثيل ولم يتكلم به**))[٢٦]، ويمكن أن نمثل هذا الكلام بالمخطط الآتي:

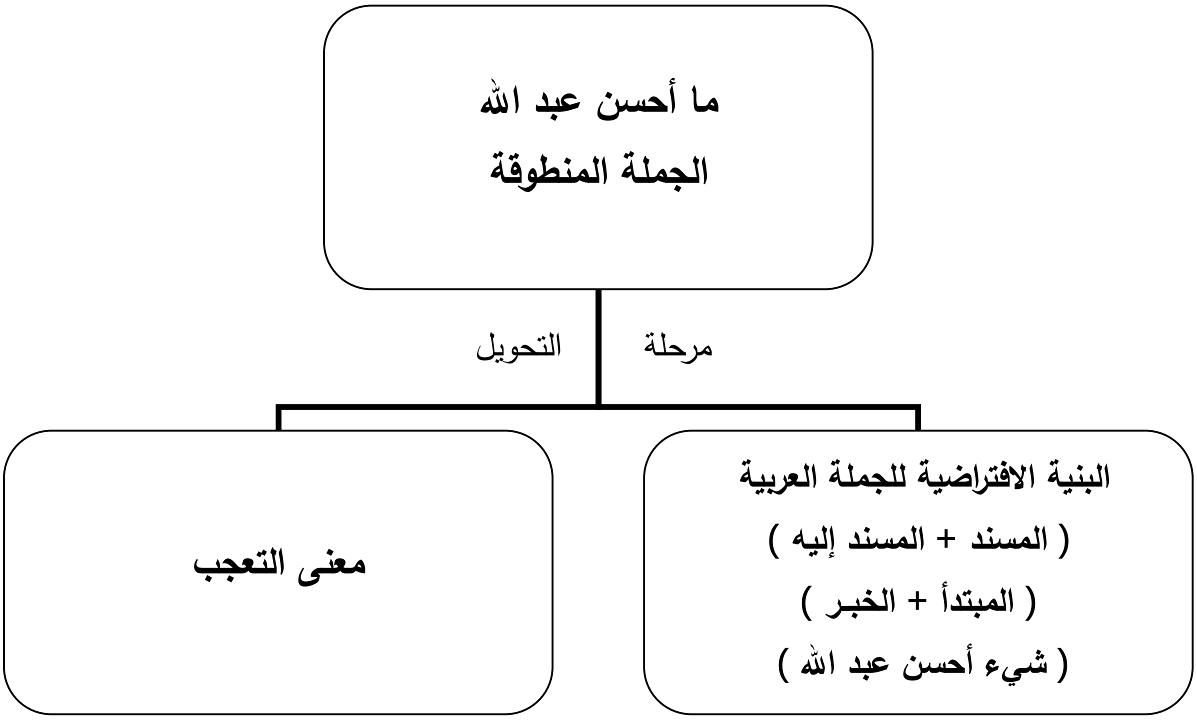

ومما يُؤكّد به كون التعجب معنى من المعاني عدم جواز التعجب بالأعيان وما ألحق بها كالخلقة واللون ؛ إذ زعم الخليل – على ما يذكر سيبويه- في تعليل عدم جواز التعجب مما كان لوناً أو خلقة قوله: ((**لأن هذا صار عندهم بمنزلة اليد والرجل، وما ليس فيه فعل من هذا النحو**))[٢٧] . فالتعجب _على ذلك_ يكون من العلم ونقصان العقل والفطنة .

ويفهم من بعض نصوص الكتاب أن التعجب ينشأ في النفس ولم يكن قبلاً ، ويعني ذلك أنه معنى (حادث) في نفس المتعجب تجاه المتعجب منه وهو – من ناحية تداولية – المعلومة التي توصف بالأكثر أهمية، ولهذا كانت إرادة الإخبار عنه، ما قد ينسجم مع دلالتي (فَعُلَ وفَعِلَ)؛ يقول سيبويه :((**وتقول: ما أشهاها، أي هي شهية عندي، كما تقول: ما أحظاها، أي حظيت عندي، فكأنَّ ما أمقته وما أشهاها**

٢٦- الكتاب : ١ / ٧٢ .

٢٧-الكتاب : ٤ / ٩٨ .

على (فَعُلَ) وإن لم يستعمل كما تقول : ما أبغضه إليَّ وقد بغض، فجيء على فعُلَ وفَعِلَ))(٢٨) ، إذ تشير الصيغتان إلى المعاني التي تكون فيما أسند إليها على نحو أنه نشأ ولم يكن من قبل ، وهو ما مثَّل حدوث التعجب وقيامه في النفس، وإن لم تستعمل هاتان الصيغتان للدلالة على التعجب(٢٩) .

أما المبرد فينزع في هذا المجال إلى ربط التعجب بسببه إذ يقول ::((**لأنَّه إنما يعجب من يرد عليه ما لا يعلمه ، ولا يقدره ، فيتعجب كيف وقع مثله**))(٣٠) ، فالتعجب عنده معنى يحصل (ينشأ) في نفس المتعجب تجاه المتعجب منه على نحو يبدو مغايراً فيه لما ألف عند الناس أو لما ألف عنه ، ويؤكد المبرد أنّ التعجب عنده هو معنى؛ لذا ربطه بالأحداث فرأى أن التعجب في حقيقة أمره يتوجه نحو الفعل لا نحو المتعجب منه الذي يقع عليه التعجب من الناحية النحوية ، في حين أنه هو الفاعل الحقيقي للتعجب من الناحية الدلالية ، يقول المبرد : ((**وإنما جاز أن يوقع التعجب عليه** (أي : يكون مفعولاً به) **وهو يريد فعله ، لأن فعله به كان وهو المحمول عليه في الحقيقة والمذموم**))(٣١) ، على أن الأحداث بما هي أحداث لا ترى بل إنّ الذي يُرى منها هو تلك الحركة التي يقوم بها الفاعل ، ويعلّق المبرّد بهذا الصدد على الجملة : (رأيت ضَرْبَ زيدٍ عمراً) بقوله : ((**فالضرب لا يُرى ، وإنما رأيتَ الفاعل والمفعول به ، ورأيت الفاعل يتحرك، وذلك المتحرك يدل على نوع الحركة، فأمّا الحركة نفسها فلا ترى ، لأنَّ المرئيّ لا يكون إلا جسماً ملوناً**))(٣٢) .

ويعد مثل هذا النظر إلى المسائل اللغوية جزءاً من الفكر التجريديّ الذي بدأ يظهر في التحليل النحويّ ، ويظهر تطوراً في بعض جوانب هذا الموضوع ينسجم مع طبيعة التفكير النحوي عند المبرّد، وعلى العموم فالتعجب عنده معنى مدرك ينشأ في النفس(نفس المتعجب) تجاه فعل المتعجب منه، على نحو يكون ذلك الفعل غير معروف أو غير مقدّر صدوره من المتعجب منه .

ويرى المبرد– على ما يبدو من بعض نصوصه – أنّ التعجب هو من الجمل الإنشائية المفيدة للاستنكار، وذلك حين قال: ((**فيتعجب كيف وقع مثله**))(٣٣)، وكذلك قوله في عدم صحة التعجب بقولنا : ما أحسن رجلاً ، وذلك أنك إذا قلت : ما أحسن رجلاً ((**فليس هذا مما يفيد السامع شيئاً لأنه لا يستنكر أن يكون في الناس من هو كذا كثير**))(٣٤) ، فالتعجب أقرب إلى الاستفهام الإنكاري الذي يفهم

٢٨- الكتاب : ٤ / ٩٩ .

٢٩- يورد سيبويه هذين البناءين (فعُل وفعِل) في المعاني التي تكون من خصال الفاعلين يرتفع بها أو يتضع ، ولعل هذا الموضوع قد تطور عند النحويين الخالفين فبرز في جانب من التعجب يكون بهاتين الصيغتين،إلاّ أنهم أدخلوهما في باب المدح والذم فألقوهما بنعم وبئس .

٣٠- المقتضب : ٤ / ١٨٤ .

٣١- المقتضب : ٤ / ١٨٧ ، أشار ابن سيده إلى أن التعجب " إنما هو من الحدث الذي يدل عليه لفظ الفعل لا من الزمن " الحلل في إصلاح الخلل : ٢٢٧ .

٣٢- المقتضب : ٤ / ١٨٧ .

٣٣- المقتضب : ٤ / ١٨٤ .

٣٤- المقتضب : ٤ / ١٨٦ .

منه أن شرط صحة التعجب عند المبرد أن ذلك المعنى يجب أن يتعلق بمعلوم كما يكون فعلاً غريباً عما اعتاده الناس أو اعتاده المتعجب منه .

نخلص مما سبق إلى القول بأن دلالة التعجب الاصطلاحية ذات اتجاهين هما :

١. التوجه نحو التعجب بما هو معنى يراد به الارتفاع بالمتعجب منه رتبة عن غيره ، وذلك معناها عند سيبويه .
٢. التوجه نحو علة التعجب التي تكمن في استنكار المتكلم لما يرد عليه من أمر المتعجب منه ، وذلك معناها عند المبرد .

وعقد عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) مواءمة بين معنيي سيبويه والمبرد، فقال : ((**اعلم أنّ التعجب من مواضع الإبهام والبعد عن الوضوح والبيان، ألا ترى أن حقيقة قولك : أعجبني الشيء ، أنك أنكرته فلم تعرف سببه ولم تأنس بنظائره** [وهو معناه عند المبرد] ، **ولا يتعجب إلا من الشيء الذي يتعدى أشكاله ويبلغ مرتبة فوق مراتبها** [وهو معناه عند سيبويه] **وإذا كان كذلك وجب أن يكون ما في قولك: ما أحسن زيداً اسماً مجرداً من الصلة والصفة**))[٣٥] ،إذ تكمن مواءمته في ربط التعجب (وهو بلوغ مرتبة ليس في العادة بلوغها) مع سببه القائم على الإنكار ، وقوله في(ما) مجرداً من الصلة والصفة يعني أن تكون (ما) نكرة عامة لتنسجم مع المنزلة غير المعهودة من المتعجب منه .

وساير ابن يعيش(ت٦٤٣هـ) المبرد في مفهومه للتعجب، فقال: ((**اعلم أن التعجب متى يحصل عند المتعجب عند مشاهدة ما يجهل سببه، ويقل في العادة وجود مثله. وذلك المعنى كالدهش والحيرة**))[٣٦]، واتفق معهما ابن عصفور بقوله معرفاً التعجب بأنه: ((**استعظام زيادة في وصف الفاعل خفي سببها ، وخرج بها المتعجب منه عن نظائره أو قل نظيره**))[٣٧].

نخلص مما سبق إلى أنّ السمة الأساسية التي تظهر في حد التعجب عند النحويين هي المباينة مع من هو في رتبة المتعجب منه أو مثيله إلى حد يصل به إلى إثارة الدهشة، وهي المنزلة التي يرتفع فيها المتعجب منه عن رتبة غيره ممن هو على شاكلته .

المنهج التدويني عند سيبويه والتعجب :

يشاع عن الكتاب أنه لا يمتلك خطة واضحة في إيراد أبواب المادة النحوية ، ومعنى ذلك افتقار النحو إلى منهج تدويني في ذلك الوقت ، وهو – من وجهة نظرنا – إدعاء يفتقر إلى الدقة العلمية[٣٨] ، ويظهر أن سيبويه كان قد عمل كتابه على وفق خطة منظمة خضعت لنظرة منهجية جاءت في صورة

٣٥- المقتصد في شرح الإيضاح : ١ / ٣٧٤

٣٦- شرح المفصل : ٧ / ١٤٢ .

٣٧- المقرب : ٧٦ .

٣٨- ينظر : مفهوم الجملة عند سيبويه : ٤٣ – ٦٧ .

كراسات عدة اشتملت كل كراسة منها على قسم من أقسام الكتاب التي بلغت تسعة أقسام . وتبدو صورة الكتاب التدوينية على الإطار الآتي :

١. **مقدمة الكتاب** : (وهي الأبواب السبعة الأولى من الكتاب) .
٢. **متن الكتاب** : ويتكوّن من تسعة أقسام، أو كراسات[٣٩] ، رتّبها سيبويه على نحوٍ يخضع لمفهوم العامل النحويّ لديه، الذي هو مفهوم تكويني (أي:هو الذي يكوّن أو ينشئ الجملة)[٤٠]، وهي كما يأتي مرتبة على وفق تتابع أبواب الكتاب :

- **القسم الأول** :مواضع الاسم في الكلام:
  - مواضع عمل الفعل (النصب) .
  - مواضع عمل الجار (الجر) .
  - مواضع عمل الابتداء والمبتدأ (الرفع) .
- **القسم الثاني**: مواضع الفعل المضارع لأسماء الفاعلين في الكلام :
  - عوامل النصب .
  - عوامل الجزم .
  - عوامل الرفع .
- **القسم الثالث** : الاسم مفهوماً (اسمية الحرف) .
- **القسم الرابع** : الأسماء بين التنوين وعدمه .
- **القسم الخامس** : الأسماء المركبة (اسم + حرف) .
- **القسم السادس** : الأفعال المركبة (فعل + حرف) .
- **القسم السابع** : الأسماء التي لا يغيرها العامل .
- **القسم الثامن** : معاني الأحداث وأبنيتها .
- **القسم التاسع** : ما يكون في اللفظ من الأعراض .

---

[٣٩]_ الكراسة : من ألفاظ سيبويه التي تثير الاهتمام في مجال التدوين ،ولاسيما رسم الهيأة الأولى لمدونته (الكتاب) ، وذلك بقوله :((**ولا يذكرون الأسماء في موضع هذه الأفعال؛لما ذكرت لك في الكراسة التي تليها..**))(الكتاب: ١٥٩/٣). وبالتأمل في هذه الكلمة وموضع ورودها نخرج بالتصورات الآتية:

١. تمَّ تأليف الكتاب على هيأة كراسات مصنفة على مقولتي(صنفي):الاسم والفعل.
٢. يشير الموضع الذي وردت فيه هذه اللفظة وما أحالت إليه إلى وجود ثلاث كراسات متتابعة - على الأقل.
٣. ويسعفنا في ذلك أل العهديّة في(الكراسة)التي تشير إلى انفصال هذا الموضع أو القسم المتعلق به هذا الموضع عن الكراسة المعهودة التي للأفعال.
٤ - إنّ النص الذي فيه هذه اللفظة يعدّ توثيقاً من سيبويه نفسه لمنهجه في كيفية تدوينه الكتاب؛ وترتيب أقسامه العامة .

[٤٠]- للاستزادة من معرفة مفهوم سيبويه للعامل النحوي ينظر بحث : المفهوم التكوينيّ للعامل النحوي عند سيبويه ، دراسة وتحليل ؛ د.غالب المطلبي ود. حسن الأسدي المنشور في مجلة المورد /العدد١٩٩٩/٣.

أبواب التعجب في الكتاب :

يجد المتأمل في كتاب سيبويه أنه نحا في الأبواب الخاصة بالتعجب نحواً أبان فيه عن نظرة منهجية في ذكر الأبواب النحوية على وفق الأقسام الآنف ذكرها، إذ نرى أن أبواب التعجب التي هي خمسة أبواب توزّعت على موضعين :

الموضع الأول : أورد فيه باباً واحداً لا غير، وهو الموضع الأول الذي ذكر فيه التعجب، وجاء في بداية الكتاب[٤١] .

الموضع الثاني: أورد فيه بقية الأبواب، التي هي أربعة، شغلت المواضع الأخيرة من الكتاب[٤٢] ، ويعد هذا البون الشاسع، وتفرقة أبواب الموضوع الواحد من جملة ما يوجه من نقد لسيبويه، ولهذا استحسنوا عمل ابن السراج في الأصول عندما ((**أخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب**))[٤٣] ، وحقهم ألا يستحسنوا ذلك، فقد أسهم ذلك اسهاماً فاعلاً في القضاء على منهج سيبويه في نظرته إلى النحو مادة وتأليفاً وهدفاً، ولذلك نعد هذا التوزيع لأبواب التعجب من مواضع الدقة المنهجية عند سيبويه، إذ إنه عندما كان الكلام في أحوال الاسم في الجملة ومنها حالة النصب، وهو الأثر الأكثر أهمية للفعل بوصفه العامل الذي يكون الجملة. وقد رأى سيبويه عرض باب التعجب الخاص بالإطار الإسنادي لبنية التعجب بقوله: ((**هذا باب ما يعمل عمل الفعل ولم يجر مجرى الفعل ولم يتمكن تمكنه ..**))[٤٤] ،من نحو الجملة:ما أحسن عبد الله؛ إذ يتمثل العمل هاهنا في طلب (أفعل) للمسند إليه الذي هو(عبد الله)، وترجع قدرتها هذه لاشتمالها على عنصر الحدث، وهو العنصر الأكثر أهمية في إفراغ مجالات الوظائف النحوية .

وترجع هذه الجملة إلى النمط الأصل للجمل في العربية، وهو نمط الجملة الاسمية، يقول سيبويه في : ما أحسن عبد الله :((**زعم الخليل أنه بمنزلة قولك: شيء أحسن عبد الله، ودخله معنى التعجب، وهذا تمثيل ولم يتكلم به**))[٤٥] ، وقد مضى توضيح هذا بالمخطط الافتراضي للتفكير النحوي عند الخليل وسيبويه الخاص بهذا الباب. ويذكر سيبويه في هذا باب عدم جواز التقديم والتأخير، وأن صيغتها الفعلية تؤخذ من أربعة أبنية حسب هي : **فَعَلَ وفَعِلَ وفَعُلَ وأفْعَل** ، وإذا أريد التعجب فيما مضى فيكون ذلك بزيادة (كان) ثم ينتهي هذا الباب .

أما الموضع الثاني للتعجب في الكتاب فاشتمل على أربعة أبواب متتالية هي :

١. قول سيبويه : ((**هذا باب ما لا يجوز فيه ما أفعله**))[٤٦] .

٤١- ينظر : الكتاب : ١ / ٧٢ .

٤٢- ينظر : الكتاب : ٤ / ٩٧ – ١٠٠ .

٤٣- الأصول في النحو : ١ / ٢١ (مقدمة المحقق عن : نزهة الألباء : ٦٩١) .

٤٤- الكتاب : ١ / ٧٢ .

٤٥- الكتاب : ١ / ٧٢ .

٤٦- الكتاب : ٤ / ٩٧ – ٩٨

٢. قول سيبويه : ((**هذا باب يستغنى فيه عن ما أفعله بما أفعل فعله**))[٤٧] .

٣. قول سيبويه : ((**هذا باب ما أفعله على معنيين**))[٤٨] .

٤. قول سيبويه : ((**هذا باب ما تقول العرب فيه ما أفعله وليس له فعل وإنما يحفظ هذا ولا يقاس**))[٤٩] .

ويجد الناظر إلى هذه الأبواب أن سيبويه نحا فيها إلى إبراز المعاني التي يتعجب منها بالصيغة الأساسية(ما أفعله ، ومثلها : أفعل به) والمعاني التي لا يمكن أن يُتعجب منها على هذه الصيغة .

يُلحظ أن سيبويه بدأ بالنظر إلى جملة التعجب من الناحية التركيبية(البنائية) وانتهى إلى الناحية الدلالية التي يكون فيها (أفعل) المحدد الأساسي .

التعجب والمنهج التدويني للمقتضب:

الملحوظة الأولى التي تظهر أمامنا لأول وهلة ونحن ننظر إلى موضوع التعجب في المقتضب أن مادته مجموعة في باب واحد خصص ليكون(باب التعجب) وفيه أورد المبرد المادة النحوية الخاصة بالتعجب تلك التي سبقه سيبويه بذكرها مع طائفة من التفريعات ذات الصفة الاستطرادية التي قد تبتعد عن التعجب على نحو واضح ، مع مادة أخرى ابتدأها بقوله:((**ونقول في شيء من مسائل هذا الباب ...**))[٥٠] من نحو : ما أحسن، وأجمل زيداً ، كأنه أراد بهذا الإشارة إلى ما زاده هو من مواضع مما لم يتكلم فيه غيره من السابقين وبخاصة سيبويه . وتعد هذه المسائل على نحو خاص مظهراً من مظاهر التطور، والتوسع في الدرس النحوي في المدة الزمنية المحصورة بين الكتاب والمقتضب[٥١].

إن ظهور مادة التعجب بصورتها الجديدة في المقتضب يعني أمرين مهمين هما :

الأول : اختفاء المنهجية السيبويهية في جانبها التحليلي، وفي جانبها التدوينيّ وبروز منهجية أخرى للدرس النحويّ مغايرة في التحليل النحوي أو في تدوينه على أقل تقدير .

الثاني : اكتسب العنوان الذي وضعه سيبويه للباب الأول في التعجب، مزيّة جعلته متقابلاً مع العنوانات التي وردت في الموضع الثاني لأبواب التعجب في الكتاب، وقد فقد هذا العنوان مزيّته عند المبرد عندما أصبح العنوان الوحيد للموضوع .

إنّ محاولة لَمِّ أشتات الموضوع الواحد، وعرضها في موضع بعينه ينسجم مع هيمنة الجانب التعليمي بوصفه غاية أولى في تأليف المقتضب، وقد استطاع المبرد عبر هذا الجانب أن يثبت تضلّعه بعلم النحو، من نحو أن يعمل على صياغة جمل طويلة من نحو ما جاء في الاسم الموصول بقوله:

---

[٤٧]- الكتاب : ٤ / ٩٩ .

[٤٨]- الكتاب : ٤ / ٩٩ .

[٤٩]- الكتاب : ٤ / ١٠٠ .

[٥٠]- المقتضب : ٤ / ١٨٤ .

[٥١]- قد تكون هذه الزيادات له ، وقد تكون لغيره مما كان متداولاً في الدرس النحوي .

((الذي التي اللذان ضربا جاريتها أخواك عنده عبد الله)) و **((الذي التي اللذان الذين التي في الدار جاريتهم منطلقون إليهما صاحباها أخته زيد))**[٥٢] ، وعلّلت د. خديجة الحديثي إيراد هذه الجمل التي لم يتكلم بها العرب بقولها:**((ولا تعليل لهذه المسائل التي وضعها المبرد في كتابه سوى محاولته جذب الدارسين البغداديين الذين لم يكونوا في مجلس ثعلب يسمعون من النحو سوى ما قاله الكسائيّ وما قاله الفراء، من غير إعمال للذهن، أو تتبع لاستعمال الأساليب وتنوّعها وتغيّرها..))**[٥٣] ، ويعني بروز مثل هذه المسائل الاتجاه بالنحو وجهة أخرى غير تلك التي اتّجه إليها سيبويه .

لقد عنون المبرّد باب التعجب بقوله :**((هذا باب الفعل الذي يتعدى إلى مفعول وفاعله مبهم، ولا يتصرف تصرف غيره من الأفعال، ويلزم طريقة واحدة، لأن المعنى لزمه على ذلك، وهو باب التعجب))**[٥٤].ويظهر أنّ هذه الصياغة لعنوان الباب لا تعدو كونها متأثرة بطريقة سيبويه في وضعه عنوانات كتابه، ولاسيما عنوان الموضع الأول للتعجب، وراعى المبرّد فيه كونه في نسق طائفة من الأبواب[٥٥] التي تنعقد على بيان نوع الفعل الذي يكوّن الجملة، ثم بيان للربط الذي يقوم بين الفعل والاسم، وبين الاسم والاسم، ثم ما يعمل عمل الفعل، وهو اسم الفاعل والصفة المشبهة وبعدها (الحال) وهو المفعول فيها، ويأتي بعدها التعجب، فموضع التعجب يأتي في طائفة المواضع التي تتوجه نحو(النصب) ، ولعله من جانب آخر كان باب التعجب الباب الأول لما تلاه من أبواب توجّهت نحو ما يعمل عمل الفعل فبعد أفعل في التعجب جاءت ما النافية التي تعمل عمل ليس، ثم يأتي النداء ويعمل فيه حرف النداء عمل الفعل .

وعلى العموم تجب الإشارة إلى أننا لم نستطع أن نهتدي إلى المنهج التدويني العام الذي رسمه المبرد في كتابه، ويرجح كون نسخة المقتضب اشتملت على خلط واضح في إيراد الأبواب، وقد نربأ بالمبرد أن يكون ذلك الخلط صنعته وهو هو من العلم إذ ارتقى فيه مكانة عظيمة واشتهر بعمق النظر، وهذا القول وإن كان لا يقدم حلاً لما نحن بصدده إلاّ أننا نخلص إلى وجود مفارقة منهجية لا شك فيها مع الكتاب .

إن العنوان الذي وضعه المبرد ينزع إلى تقييد هذا الموضوع بكونه من جملة أبواب الفعل، غير أنّ هذا الفعل يمتاز من غيره بفاعله المبهم ولعله السمة الأساسية لهذا الباب مع عدم تصرّفه ولزومه طريقة واحدة في الكلام ، وختم المبرّد عنوانه الطويل بقوله: **((... وهو باب التعجب))** وهو العنوان الاصطلاحي الذي يمتاز باختصاره لاشتماله على مصطلح الباب، ويمكن من هذا أن نتبيّن شطرين لعنوان المبرّد هما :

الشطر الأول :هو العنوان الوظيفي الذي توجه المبرد فيه نحو الصيغة البنائية لجملة التعجب .

٥٢- ينظر : المقتضب : ٣ / ١٣١ – ١٣٢ ، وينظر أيضاً : المبرد سيرته ومؤلفاته : ٢٨٥ – ٢٨٨ ووضع المبرد بعض أبواب كتابه بـ (مسائل طوال يمتحن بها المتعلمون) .

٥٣- المبرد سيرته ومؤلفاته : ٢٨٦ .

٥٤- المقتضب : ٤ / ١٧٣ .

٥٥- ينظر : المقتضب: ٤ / ٥٠ – ١٧٣ .

الشطر الثاني : العنوان الاصطلاحي الذي ذيل به الشطر الأول، وهو المشتمل على مصطلح التعجّب ، وقد شاع هذا العنوان في النحويين الخالفين .

وينزع بنا هذا المسلك لدى المبرّد إلى قول الآتي :

١. حدوث تطور آخر في الدرس النحوي بين كتابين .
٢. لم يصل هذا التطور إلى المنزلة التي يتخلّى النحو فيها عن العنوان الوظيفي الذي وضعه سيبويه .
٣. يفهم من قول المبرّد: " ((**وهو باب التعجب**)) أنه تم تخصيص باب بعينه يتم فيه عرض المادة المتعلقة بالتعجب.ولعلَّ هذا الأخير يفسّر لنا لماذا لم يستعمل سيبويه هذا العنوان في كتابه، إذ لم يكن له إلى ذلك سبيل في ظل تمسكه بمنهجه .

جهات أخرى للموازنة :

تقوم الموازنة بين منهجي التدوين لدى سيبويه والمبرد - فضلاً عمّا مضى – من جهات هي على النحو الآتي :

أولاً : المصطلح :

لاحظنا سابقاً أن مصطلح(باب التعجّب) ظهر في المقتضب في عنوان الباب ذي الطابع الوظيفي في حين أن سيبويه اكتفى بإيراده في أثناء الباب ، إذ نقل عن الخليل في تفسير الجملة : ما أحسن عبد الله بقوله:((**زعم الخليل أنه بمنزلة قولك: شيء أحسن عبد الله ودخله معنى التعجب .**))[٥٦] ،وكنا قد أرجعنا ذلك إلى تمسك سيبويه بمنهجه ، ويكاد سيبويه في هذا الموضع يقتصر على إيراد صيغة التعجب(ما أفعله) عوضاً عن استعمال المصطلح؛ وكأنه يحترس في كلامه بذكر الصيغة في أبواب التعجب، التي عرفت فيما سُمي بـ(التعجب القياسي) عن التعجب الذي تدلّ عليه أنماط أخرى سُمعت من العرب، واستعمل سيبويه فيها لفظة التعجب وجاءت فيما لا يقل عن ثماني مرات[٥٧].

ثانياً : فعليّة (أفعل) :

لم ير سيبويه كون (أفعل) في التعجب فعلاً تاماً بحسب تعريفه للأفعال، بل رآه يندرج في طائفة من الكلمات التي تسلك مسلك الفعل في الجملة ، فهي تمتلك القدرة التكوينية للجملة، كما يمتلكها الفعل، وإن لم تكن فعلاً بمعناه النحوي ، فكان عنوان الباب ((**هذا باب ما يعمل عمل الفعل ولم يجر مجرى الفعل**)) ، و خالف المبرّدُ سيبويهِ بذهابه إلى أنّ (أفعل) فعل تام الفعلية، إذ قال : ((هذا باب الفعل الذي

٥٦- الكتاب : ١ / ٧٢ .

٥٧- وتلك في الكتاب ٣ / ٤٩٧ : " وقد تقول تا الله ! وفيها معنى التعجب " ، وكذلك لله ويكررها في الصفحة التالية ، وفي الكتاب ٢ / ٢٣٧ في يا لك فارساً " فيه معنى التعجب " و " إنما دعاهم لهم تعجباً " وفي الكتاب ٢ / ١٥٢ في قول الشاعر : إلا كالعشية زائراً ... " لأن الكاف ليست باسم وفيه معنى التعجب .." .

يتعدى .. " فهو من جملة الأفعال المتعدية إلى مفعول ، وكان المبرد قد قال : " ومنها (يعني من الأفعال المتعدية) فعل التعجب ، وهو غير متصرف ... وهو فعل صحيح ..))[٥٨] .

ثالثاً : أبنية المعاني التي يتعجب منها :

ذكر سيبويه أنّ بناء التعجب يكون من أبواب أربعة جاء ذكرها بقوله : ((وبناؤه أبداً من فَعَلَ وفَعِلَ وفَعُلَ وأَفْعَل))[٥٩] واتّخذ المبرد طريقاً آخر فمثَّل لها بالأفعال المشهورة من تلك الأبنية ، فقال : ((إعلم أنّ بناء فعل التعجب إنما يكون من بنات الثلاثة نحو : ضَرَبَ ، وعَلِمَ ، ومَكُثَ ..))[٦٠] وأرجع المبرد بناء (أفعل ومثاله أعطى) إلى الثلاثي بقوله : " فإن قيل : فقد قلت : ما أعطاه للدراهم وأولاه بالمعروف، وإنما هو من أعطى وأولى ، فهذا وإن كان قد يخرج إلى الأربعة فإنما أصله الثلاثة والهمزة في أوله زائدة))[٦١] .

ويبدو أن المسلك في ذكر الأفعال المشهورة يمكن رده إلى زيادة الإحساس بظاهرة التصحيف التي تعتري الألفاظ عند النسخ، وتنسجم مع الناحية التعليمية التي هي في المقتضب واضحة جلية ، كما أن العودة ببناء الرباعيّ (أفعل) إلى الثلاثي هو من هذه الناحية .

رابعاً : التفريع في المسائل :

لقد ظهر التفريع في مسائل هذا الباب وفي غيره من الأبواب النحوية في المقتضب على نحو واضح. وتم هذا التفريع باتجاهين هما :

أ) **التساؤلات الافتراضية** : تبرز عند المبرد المسائل التي يفترضها هو في المسألة موضع العرض ، ويأتي ذلك في إطار " فإن قيل... ، أو" قال قائل ... قيل له "[٦٢] .وهي _على العموم_ تساؤلات خلا منها الكتاب ولاسيما موضوع التعجب ، وتنسجم هذه المسائل مع ما عرف به المبرد من محاججة واستدلال وتعليل[٦٣] .

ب) **الاستطراد:** وهي سمة امتاز بها المقتضب أيضاً، إذ برزت في هذا الموضوع استطرادات عدة في مسائله من نحو :

١. إعراب جملة التعجب : ما أحسن زيداً [٦٤] .
٢. إثبات اسمية (ما) : وذكر شواهد شعرية لها [٦٥] .

---

[٥٨]- المقتضب : ٣ / ١٩٠ .
[٥٩]- الكتاب : ١ / ٧٣ .
[٦٠] - المقتضب : ٤ / ١٧٨ .
[٦١]- ينظر : المقتضب : ٢ / ١٧٣ ، ١٧٦ (مرتان) ، ١٨٢ .
[٦٢]- المقتضب : ٤ / ١٧٨ .
[٦٣]- ينظر : المبرد سيرته ومؤلفاته : ٤٣ وما بعدها .
[٦٤]- ينظر : المقتضب : ٣ / ١٧٣ و ١٧٤ .

٣. بيان كيف دخل التعجب في (شيء أحسن زيداً) التي هي البنية النحوية التي افترضها الخليل ليُفسِّر بها الجملة المنطوقة : (ما أحسن زيداً)[٦٦] .

٤. بيان التعجب كيف يكون في : (ما أعظمَ اللهَ يا فتى، وما أكبرَ الله) [٦٧] .

٥. موضع لبعض الخلاف النحوي في أنّ (أحسنَ) صلة (ما)، والخبر محذوف[٦٨] .

٦. وفي أنّه لا يقال لله عز وجل: تعجَّب ، ولكن ما جاء على التعجب في الآيات القرآنية من نحو قوله تعالى :﴿ **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ...**﴾(مريم٣٨) خرج على كلام العباد[٦٩]، وغير ذلك من الاستطرادات الفرعية .

خامساً : التوسع في مسائل التعجب :

يظهر ممّا جاء في المقتضب أن سيبويه لم يتناول مسائل التعجب بأطرافها كلها ، فقد ذكر المبرد أن التعجب لا يكون من الأفعال فوق بنات الثلاثة نحو (دحرج وإحرنجم)[٧٠] ، ولم يشر سيبويه إلى هذا، واكتفى بالمسموع من العرب. وهو في ذلك ينسجم مع فهمه لوظيفة النحو الذي يعتني بكلام العرب المسموع عنهم لا ما يمكن أن تفرضه الصناعة النحوية، التي منها تقليب الوجوه المختلفة للكلام بغض النظر عن كون ذلك الوجه مما تكلّمت به العرب.

ومن تلك المسائل التي ذكرها المبرّد من نحو الجملتين : يا هندُ أحسنْ بزيدٍ ، ويا رجلان أحسنْ بزيدٍ[٧١] ، وأراد بها بيان أن صيغتي التعجب لا تتغير هيأتهما، وإنْ اختلف المخاطب (فاعل التعجب) ، وتبقى ملازمة طريقتها الأولى (المفرد المذكر)، وذكر لذلك الإنموذجات الكلامية لتمثيل عدم تغيرها عندما يكون الفاعل مؤنثاً ومثنى.

ومن مواضع التوسع في مسائل هذا الباب ما ذيل به المبرد بابه بقوله : ((**ونقول في شيء من مسائل هذا الباب ...**))[٧٢] ، وذكر أنماطاً لم ترد عند سيبويه من نحو: **(ما أحسن وأجمل زيداً)** ، و**(ما أحسن ما كان زيد وأجمله)**[٧٣] و**(ما أحسني)**[٧٤] ، وتقول : **(ما أحسن زيداً ورجلاً معه)**[٧٥] و**(ما أكثر هبتك الدنانير وإطعامك المساكين)**[٧٦]، وغير ذلك .

٦٥- ينظر : المقتضب : ٣ / ١٧٣ و ١٧٤ .

٦٦- ينظر : المقتضب : ٤ / ١٧٥ .

٦٧- ينظر : المقتضب : ٤ / ١٧٦ .

٦٨- ينظر : المقتضب: ٤ / ١٧٧ ، وهو رأي الأخفش ، ينظر : شرح ابن عقيل : ٢ /

٦٩- المقتضب : ١٨٣/٤. والآية هي قوله تعالى:﴿: **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾

٧٠- المقتضب : ٤ / ١٨٠ .

٧١- المقتضب : ٤ / ١٨٤ .

٧٢- ينظر : المقتضب: ٤ / ١٨٤ – ١٨٥ .

٧٣- ينظر : المقتضب: ٤ / ١٨٤ – ١٨٥ .

٧٤- ينظر : المقتضب : ٤ / ١٨٦ .

ويعد هذا الموضع معلماً مهماً لبيان ما نال الدرس النحوي من تطور في الحقبة التي تلت إخراج الكتاب حتى كتابة المقتضب؛ فضلاً على ذلك فإن هذه المسائل تبين فضيلة المبرد في وضعها وبيان جهة القبول أو الرفض فيها بما ينسجم والأصول النحوية المتفق عليها ، من غير أن نجد إشارة واضحة تلمح إلى كون هذه الجمل مما تكلّم به العرب سابقاً، ولعله مما تكلّموا به قريباً من زمن المبرّد ، أو لعلها محصلة تقليب وجوه الكلام الذي دعته إليه الصناعة النحوية.

<u>انتهى البحث</u>

<u>الباحث</u>

---

[٧٥]- ينظر : المقتضب : ٤ / ١٨٦ .

[٧٦]- ينظر : المقتضب: ٤ / ١٨٧ .

ثبت المظان :

١. الأصول في النحو،أبو بكر بن السراج النحوي البغدادي(ت٣١٦هـ)،تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف،١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

٢. كتاب الحلل في إصلاح الخلل من كتاب الجمل،لابن سيده البطليوسي

٣. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري(ت ٧٦٩هـ) ومعه ، منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، ط٤، مطبعة أوفسيت منير، بغداد،١٩٨٦م .

٤. شرح الرضي على الكافية لابن الحاجب، رضي الدين الإستراباذي(٦٨٨هـ)، تحقيق: يوسف حسن عمر،منشورات مؤسسة الصادق ، طهران،١٣٩٨هـ -١٩٧٨م.

٥. شرح المفصل ، موفق الدين بن يعيش(ت ٦٤٣ هـ)، عالم الكتب، بيروت، د . ت .

٦. كتاب العين ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت١٧٥هـ)،تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي ، دار الشؤون الثقافية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد .

٧. القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الفكر، بيروت، ط١ ،١٩٨٣م.

٨. الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه(ت١٨٥ هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، عالم الكتب للطباعة والتوزيع ، بيروت ، د . ت .

٩. المبرد سيرته ومؤلفاته ، د. خديجة الحديثي.

١٠ .مفردات ألفاظ غريب القرآن،أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصبهانيّ (٥٠٢هـ)، ضبط:هيثم طعيميّ ، دار إحياء التراث العربي،بيروت ،ط١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١١ .المفهوم التكويني لنظرية العامل النحوي عند سيبويه، تحليل وتوجيه ، د. غالب المطلبي و د. حسن عبد الغني الأسدي ، مجلة المورد العراقية ، ع٣ ، ١٩٩٩ م.

١٢ . مفهوم الجملة عند سيبويه، د. حسن عبد الغني الأسدي، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١ ، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م .

١٣ .كتاب المقتصد في شرح الإيضاح، عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)تحقيق كاظم بحر المرجان ، د. مط ، (د.ت) .

١٤ . المقتضب ، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت٢٨٥هـ) تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب ، (د . ت) .

١٥ .المقرب، علي بن مؤمن بن عصفور (ت٦٦٩هـ)، تحقيق عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري ، مطبعة العاني ، ، ط٢ ، بغداد ١٩٨٦ م .